الماركسية في أزمتها الإبستمولوجية*

ريبان دري

ترجمة :لحسن أمزيان *

لن نحتاج إلى جهد كبير للبرهنة على أن العالم يمر من إحدى أكثر وأعمق الأزمات التي عرفها تاريخه. وليست البلدان التي كانت تشكل ما يسمى البلدان الاشتراكية وحدها التي تجتاز هذه الأزمة، بل إن الرأسمالية كلها توجد تحت وقع دوي الفرقعة. إن لهذه الأزمة التي تجتاح كل المستويات امتدادات في النسيج الاجتماعي، وبما أنها كذلك فلا يمكن ألاّ يكون لكل ذلك انعكاسات في النظرية وفي الوعي.

إن كل النماذج الابتسمولوجية أصبحت موضوع تساؤل: حيث لم يعد ما كان يسمى "ما بعد الحداثة" إلا تعبيرا عن هذه الأزمة التي أفضت إلى خيبة الأمل الشاملة من العالم التي تحدث عنها "ماكس فيبر"، والعدمية التي تنبأ بها "نيتشه". إلا أننا سنقتصر الآن على ما يهمنا أكثر ألا وهو مقاربة الأزمة الابستمولوجية للفكر الذي عرف بانتسابه إلى "كارل ماركس".

الماركسية والعلم : توجد جذور الأزمة الابستمولوجية للماركسية في التعريف بالتماثل الذي حصل منذ البدء بين الماركسية والعلم من جهة، وبين العلم والعقلانية من جهة أخرى.

ففي المراحل الأولى التي هيأت الثورة البورجوازية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، خاض منظرو البورجوازية الوليدة صراعا بدون هوادة ضد الميثولوجيا، باعتبارها إيديولوجيا تشرعن الفيوداليا. وأثناء هذه الصراع وجدوا دعما لا يقدر بثمن من الازدهار الرائع للعلوم الطبيعية. إنها اللحظة التي ولدت فيها العلوم بمعنى الكلمة. وبسرعة سيتم مماثلة العقلانية والوضوح مع العلمي ليتسنى تطوير العقلانية التي تم جلبها من العلوم المكتشفة حديثا والتي كانت نتائجها ملموسة.

وقد تقدم العقل باستخدام أشعته الوضاءة في تطور العلوم في مواجهة ظلامية القرون الوسطى ممثلة في الدين بتعبيره النظري: الميثولوجيا. إن العقلانية تتجلى في العلوم، ومنذئذ صار كل ما لا يمكن

إخضاعه للمقاييس المحددة من طرف العلوم، محكوما عليه على أنه نزوة أو خرافة أو يوتوبيا. وهي مفاهيم ذات إيحاءات تحقيرية واضحة.

ومؤسسو الماركسية لم يكونوا بمنأى عن هذا التصور، فلدى ماركس نفسه، إشارات لا تحيد عن هذا المعنى، على الرغم من وجوب تدقيق مواقف كل مفكر كبير. فرغم أن في مؤلفاته إثباتات تسير في نفس هذا المنحى، ورغم أنه اعترف غير ما مرة بأنه اكتشف البنية العلمية للمجتمع الرأسمالي باستلهام من العلوم الطبيعية، فإن تحديداته النظرية غالبا ما تتجاوز دائما إثباتاته.

إلا أن هذه الإثباتات توجد أقل تدقيقا عند "إنجلز". إنه يعتقد حقيقة أنه بعد "ماركس" لم يبق من الفلسفة السابقة غير: "نظرية المعرفة وقوانينها: المنطق الشكلي والمنطق الديداكتيكي". بمعنى آخر، لاجدوى من أية معرفة واقعية : "فالباقي كله، يتابع "إنجلز"، يندثر في العلم الوضعي للطبيعة والتاريخ".

وانطلاقا من ذلك صارت الماركسية هي العلم، أو الفلسفة العلمية. وكل شكل آخر من الوعي أو المعرفة يجب أن يخضع لسلطان العلم، وبما أن هذا الأخير يتجسد في الماركسية–اللينينية، فكل وعي لا يسايره يصير شكلا من الوعي الدوني، غير قادر على ولوج المستوى الحقيقي للعقلانية. وتملك الماركسية باعتبارها الماركسية–اللينينية لوحدها سر العقلانية. وكل شكل آخر من أشكال الوعي يجب أن ينتهي بالانحناء أمام الماركسية اللينينية أو عليه بجحيم الخرافة والجهالة.

العقلانية والمعنى: كان الكائن البشري منذ الأزل في حاجة إلى موجه في هذا العالم. وقد طرح الإنسان على نفسه منذ ظهوره مشكل المعنى. لذلك انبثقت الأساطير في الوهلة الأولى. والأساطير لا تعني أبدا لا عقلانية الأقدمين، بل بالعكس تماما فإنها تعبير عميق عن عقلانيتهم: إن الممارسة القديمة وجدت في الأساطير التوجهات الأولى للمعنى.

إن ما يميز الكائن البشري هو انفتاحه الكلي، الشيء الذي يعني أنه منفتح على العالم باعتباره كذلك. وهكذا، منذ كان الإنسان إنسانا كان يمتلك نظرة معينة لهذا العالم. وعندما تسودّ هذه النظرة فان الوعي يسودّ كذلك، ويبدأ الإنسان بالانقراض، لأنه يعود إلى صفاء وحشيته أو طبيعته الأولى. إن الإنسان في حاجة إلى التوجيه إزاء هذه الكلية ليعطي معنى للحياة والموت والألم والحب والصداقة...

لقد انبثقت الأسطورة للإجابة عن المشاكل الكبرى التي طرحتها الكلية. وبالتالي فإنها تمثل نظرة إلى العالم في شكل تعبير حكائي. وكل الأساطير الكبرى تتغيا اليوتوبيا.

واليوتوبيا هي المستقبل الذي يتحقق فيه الإنسان الكامل، ولو كان هذا المستقبل مموقعا في ماض غابر كما هو الشأن في حالة أساطير الجنة المفقودة. إنه يظهر بوضوح مطلق في أساطير الأرض

الموعودة أو الأرض المحفوظة من كل الشرور. إن اليوتوبيا المسماة مركزا تعطي معنى لحياة الجماعة وتفتح لها الآفاق الضرورية لفهم الواقع ولتغييره.

ومع الدين انتقلت نظرة الإنسان إلى العالم من التعبير الحكائي إلى مستوى أعلى: مستوى ذي طابع مفاهيمي. وقد استعان الدين في ذلك بالميثولوجيا التي اهتمت بالتعبير عن النظرة إلى العالم على غرار الأسطورة التي تكتفي دائما بالحكي. وظهر النقد مع المفهوم أو التصور. أما الأسطورة فإنها دائما دوغمائية، إنها تحكي كيف أن الله أو الآلهة خلقوا العالم، وكيف حققوا للمرة الأولى الأفعال التي لها دلالات أساسية في حياة الجماعة، بإقامة معايير ثابتة لكل خلق مستقبلي.

إن الدين المعروف دائما بهيمنة العاطفة فيه يضاعف بالميثولوجيا الحاملة للعقلانية. إنها تفترض أن هناك وحيا من الله أو من آلهة ما دون أن يعني ذلك أنها تفرض عقائد بالضرورة، أو أنها تؤسس حقائق مطلقة خارج التاريخ. الوحي يمكن أن ينتج تاريخيا وأن يستدعي أدوات مفاهيمية خاصة كالتأويلية والنقد والتحليل السوسيولوجي والثقافي والسياسي والاقتصادي.

أما الفلسفة فإنها تُعد شكلا آخر من التعبير عن النظرة إلى العالم. وبصدد حالتها تلك، فإنها لا تفترض أي وحي من الله أو الآلهة. إن غايتها مطابقة لغاية الأسطورة والدين- الميثولوجيا، وهي التعبير عن معنى المشاكل الكبرى التي تعترض الكائنات الإنسانية على المستوى الشخصي فيما يتعلق بالحياة والموت والسعادة والألم والخوف والحب... أو على المستوى الجماعي: الأملاك الجماعية والحياة الأفضل والحروب ... إلى غير ذلك.

إن الأسطورة والدين- الميثولوجيا والفلسفة ثلاثة أشكال للتعبير عن العقلانية وثلاث لحظات للعقلانية تتجاوز الواحدة الأخريات دون أن تتغيا إلغاءهن. ومع بروز العلوم أو العلم مع الثورة البورجوازية كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فإنه سيحاول إلغاء كل الأشكال الأخرى للعقلانية، بالحكم عليها باللاعقلانية وبالظلامية، وبالتالي سيحاول اضطهادها.

وتتميز العلوم بخاصيتين تميزهما عن اللحظات الأخرى من العقلانية المشار إليهن سابقا وهما: عدم اهتمامها بمشاكل المعنى والتوجيه بما أنها لا تتغيا إعطاء نظرية للعالم, وكونها تحدد لنفسها دائما مجالا محددا، وتصير متخصصة فيه بالضرورة. وإنها لا تدّعي أن يكون هناك علم للكلية من جهة. ومن جهة أخرى تسعى العلوم إلى التوفر على وسائل ناجعة لحل مشاكل تطبيقية محددة كتحسين التغذية وتحسين استغلال عناصر الطبيعة وفي كيفية مراكمة الرأسمال وتنويع المتع والتخفيف من الألم...الخ. وحين تتوجه إلى مشاكل المعنى تتحول إلى فلسفة.

وعليه فان العقلانية تعرف ثلاث لحظات مختلفة لا يمكن إلغاء أو اضطهاد أي منها. عندما ينبثق شكل جديد من العقلانية، فإن الشكل السابق عليه لا يختفي كليا بل يتحول ويتأبد في مستوى آخر. لم تختف الأسطورة والدين والفلسفة في أي لحظة من لحظات التاريخ، رغم أنه أعلن دائما عن موتهم. إنهم ينبعثون دائما من رمادهم كطائر الفينيق. فإذا اضطهدت أو ألغيت لحظة من لحظات العقلانية تلك فيجب انتظار عودة المضطهد، كما يعلمنا بذلك التحليل النفسي، وهو ما يعاني منه حاليا العالم بأسره مع العودة القوية للوطنية والجهوية والأصولية الدينية.

إن عصر الأنوار قد سقط في هذا الخطأ وهو نفس الخطأ الذي نقلته عنه الماركسية اللينينية التي ادعت كونها فلسفة العلم، في حين أنها لم تكن حقيقة إلا إيديولوجية من خلق الدولة السوفياتية لشرعنة نفسها. وقد أفضى هذا الخطأ إلى خسائر إنسانية واجتماعية وسياسية كبرى، ليس أقلها أنها ساهمت بفعالية في تأخير ثورة اشتراكية حقيقية قادرة على القضاء على الرأسمالية وعلى العالم الذي هي بصدد تشييده.

الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية :لقد تم تحديد فخ العلموية الذي سقطت فيه الماركسية بالتعبير البئيس: الاشتراكية العلمية والذي يقابل بالاشتراكية الطوباوية أو الاشتراكية الحالمة. وتهدف هذه التسمية من جهة إلى التمييز بين كل الاشتراكيات السابقة على ماركس بكونها لم تعرف القوانين العلمية التي اكتشف ومن جهة أخرى تمييزها عن الاشتراكات البعدية التي رغم أنها تطمح إلى تحقيق الاشتراكية إلا أنها تبقى ملهمة بالخطابات الدينية أو الإنسية وتجهل أن الماركسية اللينينية معرفة علمية للواقع.

وعلى غرار هذا يظهر لنا أنه من الأساسي التفكير في العلاقة بين العقلانية واليوتوبيا والعلم. إن العقلانية في المقام الأول ليست شيئا آخر غير الوعي الذي يصاحب ممارسة معينة. وبما أن الحال كذلك فإن الإنسان لكي يتصرف عمليا فإنه يحتاج كما رأينا سابقا إلى موجه في هذا العلم، أو بمعنى آخر في مواجهة هذه الكلية. وبدون انفتاح الإنسان إزاء هذه الكلية، فانه لن يستطيع أبدا تجاوز مستوى حيوانيته.

من مقومات الكائن البشري تجاوز الحدود. وتسمى لحظة القطيعة مع الحدود باليوتوبيا وهي ما نقصده دائما بالماوراء. هذا الماوراء الذي يوجد هو نفسه، من جانب آخر، في لحظة الحاضر من خلال أنه يأخذ حيزا في وعيي الخاص، رغم أنه يبدو كأنه يبتعد باستمرار كالأفق. وعلى الرغم من أنني لن أصله أبدا إلا أنه يناديني دائما. وبرغبة اللحاق به، فإنني ألتهم المسافة التي تفصلني عنه وأغير العالم.

ومن ثم، فإن اليوتوبيا تفتح المدى على ميادين جديدة للممارسة وعلى أهداف جديدة لبلوغها. إنها عقلية تماما لكنها ليست علمية. وبدون الدخول الآن- لأن العرض لا يسمح بذلك- في سجال حول دقة أو عدم دقة القوانين العلمية فمن البديهي أن العلم يقوم بتحديد فضاء خاص به، بما أنه لم يكن أبدا علم كلية. بل إنه يتغيا الكشف عن القوانين، التي ستصير ثابتة، وتحدد سلوكا ما. فأينما وجد العلم ليست هناك حرية بل هناك حتمية أو على الأقل نزوع نحو الحتمية.

و"العلمي" يتميز بخاصيتين مهمتين هما: تحديد الحقل وحتمية السلوك. المجتمع المشيد على أسس علمية تماما سيصير مجتمعا محددا وحتميا، ويدار بإحكام كقرية نمل. واليوتوبيا ستقطع مع هذا البناء من خلال خاصيتين مركزيتين: رفض الحدود والحرية. فاليوتوبيا تحث على القطيعة مع الحدود المثبتة والقوانين المشيدة بإحكام.

ومن الضروري الأخذ في الاعتبار أن العلم واليوتوبيا لحظتان من العقلانية أو أنهما شكلان من لحظاتها. الإنسان لا يستطيع تشييد أي شيء غير موجه نحو اليوتوبيا، أو ينطلق منها، ولن يستطيع التشييد أصلا إذا لم يكن يعرف قوانين البناء. ومن ثم ضرورة وجود علاقة جدلية بين العلم واليوتوبيا، وبين الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية. فالصرح النظري لماركس هو بالفعل مساهمة علمية لا غنى عنها لفهم بنية العالم الرأسمالي. إلا أنه ليس مساهمة علمية خالصة، فالعلمي فيها ليس إلا لحظة. صحيح أنها لحظة مهمة بدون شك، إلا أنها لحظة أدوية فحسب. وعليه فإنها في خدمة مشروع ذي أفق يوتوبي: فالمشروع يسمى بالاشتراكية التي تعني تحقيق مجتمع تنتفي فيه الطبقات الاجتماعية. واليوتوبيا تسمى شيوعية وتعني مجتمعا لا تنتفي فيه الطبقات الاجتماعية فحسب بل يتم فيه تجاوز كل التناقضات.

إن هذا المشروع قابل للتحقيق، إنه عقلي تماما وخاضع للعقلانية العلمية لأنه لن يتحقق إلا إذا كنا ندرك القوانين العلمية للمجتمع الذي نريد تجاوزه. وتتقاطع هذه العقلانية العلمية مع عقلانية أخرى إنها عقلانية اليوتوبيا. واليوتوبيا ليست لحظة لا عقلانية، إنها تنتمي إلى لحظات العقلانية في حدود أنه بالنسبة لها، فإن الإنسان لا يغادر أبدا سلطة التفكير وبالتالي النقد.

إن اللحظة العلمية بالنسبة للعقلانية عندما تكتشف القوانين في الإطار الطبيعي كما في الإطار الاجتماعي فإنها تسمح للإنسان وللمجتمع بإخضاع وسطهم الخاص عوض أن يكونا خاضعين له. إلا أن هذه اللحظة غير قادرة أبدا على إضاءة حقل المعنى. هذا المعنى الذي بدونه ستستسلم الكائنات الإنسانية وبالتالي المجتمعات إلى الموت.

إن المعرفة العلمية بالمعنى الحديث لهذا المفهوم، التي ولدت مع الثورة البورجوازية، ليس لها ما تقوله حول معنى الحياة والموت والألم والخوف والسعادة والصداقة والعديد من الحقائق الأخرى التي تشكل المعيش أو التجربة المحققة في أقصى أعماق الكائنات الإنسانية.

العلم ليس له ما يقوله في هذا المجال لكنه ليس مجالا لاعقليا بل بالعكس تماما، لأن في هاته الأعماق تنمو التأملات الفلسفية التي تكون لحظات تعظيم العقلانية، والى هذا الحقل تنتمي اليوتوبيا كذلك. إنها دائما الماوراء الذي يحيل على المعنى، والذي ينادي بتحقيق الأكثر والذي ينتقد ما تحقق من قبل. إن اليوتوبيا تمنع الإنسان الفرد كما المجتمع ككل من الانغلاق في ذواتهم والاختناق بها. إنها أساسا ضد رهاب الاحتجاز.

العقلانية والإيمان والإلحاد: من بين الاكتشافات العلمية التي وصلت إليها الماركسية- اللينينية نجد عدم وجود الله. قد يعّبر عن هذا الاكتشاف على أنه إلحادية علمية. كان يعتقد علماء دين القرون الوسطى في قدرتهم على الاستدلال على وجود الله. وهؤلاء علماء الدين قد يكونون متسامحين مع الملحدين دون أن يتوقفوا دائما على نعتهم بأنهم جهلة غير قادرين على استيعاب البراهين الدقيقة والواضحة التي يقدمها مجموع التفكير الميثولوجي. والعلماء الماركسيون اللينينيون يمكن أن يتسامحوا وأن يقبلوا المؤمنين داخل الحزب لكنهم لن يستطيعوا الإحجام دائما على اعتبارهم أنهم بسبب عدم تمكنهم من استيعاب العلم الماركسي في وضوحه التام، فإن هؤلاء المؤمنين يحافظون على عاداتهم الخرافية القديمة.

إذا كان كذلك، فإما أن قبول المؤمنين في الحزب الذي يجب أن يكون طليعة الثورة ومسلحا بكل أنوار المعرفة ما هو إلا مجرد وصولية، وإما أن نقبل منذ البدء أن هناك مناضلين عارفين وآخرين غير عارفين، وبالتالي مناضلين من الدرجة الأولى ومناضلين من الدرجة الثانية. وللخروج من هذا الخيار الذي لا يوفر أي حل إيجابي على المدى المتوسط، يجب علينا أن نقوم بإعادة نظر عميقة للابستمولوجيا الماركسية نفسها، وهو ما نقترحه وما يفترض على المؤمنين القيام به بدورهم بإعادة نظر ابستمولوجية متعلقة بتفكيرهم التيولوجي.

وكما رأينا سابقا، فالأسطورة ونفس الشيء بالنسبة للدين- التيولوجيا والفلسفة تنبثق جميعها للتعبير عن معنى المشاكل الكبرى التي تعترض الكائنات الإنسانية. إن الأسطورة والدين- التيولوجيا والفلسفة ثلاث طرق للتعبير عن العقلانية وثلاث لحظات للعقلانية التي تتجاوز تعاضديا دون أن تلغي

أبدا الواحدة الأخريات. إنه فقط عند ولادة العلم أو العلوم مع الثورة البورجوازية كما ذكرنا أعلاه، حاولت هذه الأخيرة إلغاء الأشكال الأخرى للعقلانية بالحكم عليها باللاعقلانية والظلامية.

العلم هو النور الذي يطرد الظلام إلى الخارج والماركسية اللينينية انطلاقا من تشبعها بالأنوار- وفق تعبير هذا التصور للعلم- اعتقدت أنها فلسفة العلم كما ذكرنا سابقا. وتحتمل هذه التسمية مفهومين: الأول أن تكون الماركسية- اللينينية نظرة إلى العالم بالارتكاز على أكثر الانجازات العلمية سموا، وبهذا المعنى فإنها صحيحة.

ويمكنها أن تعني كذلك أنها نظرة علمية تماما إلى العالم، بمعنى أنها ستختزل كل العلوم. وبهذا المعنى فإنها ستبدو مغالية، لأنه لا يمكن أن توجد نظرة إلى العالم بهذا المعنى، لأن العلم لا يمكن أن يكون نظرة إلى العالم. وإلا فإنه سيفرض كعقيدة، وسيحاصر حينئذ اللحظات الأخرى للعقلانية التي ستثور عاجلا أم آجلا.

يُعد الدين والميثولوجيا المرتبطة به ككل شكلا أو لحظة من العقلانية يمكن أن يصبح عقيدة جامدة وفتيشية ويتحول إلى "أفيون الشعب". لكن وباعتباره لحظة من العقلانية التي تفتح الطريق لليتوبيا، فإنها لحظة مهمة كذلك تحث على تحولات متتالية للواقع. فلكل "لوثر" الذي بارتكازه على نصوص من الإنجيل يؤكد قمع الأمراء للفلاحين ينبثق له "توماس موفزار" ثان يجد في نصوص أخرى من الإنجيل الإلهام لخوض هذا الصراع إلى غاياته القصوى.

العلم، سواء أتعلق الأمر بالعلوم الطبيعية أم العلوم الاجتماعية، ليس له ما يقوله حول مسألة وجود الله أو عدم وجوده. وكما أنه لا يمكن أن يكون هناك إلحاد علمي فلا يمكن كذلك أن يكون هناك إيمان علمي. فالصداقة والحب والكراهة بشكل عام ككل التجارب الإنسانية العميقة ليست في متناول العلوم، ولو تم تقديمها على أنها فلسفة علمية. وأن لا تكون هذه التجارب في متناول العلم لا يعني البتة أنها لا عقلانية بالضرورة. إنها في متناول العقلانية الفلسفية والدينية العميقة التي يجب أن تخضع باستمرار للنقد ككل لحظات العقلانية.

إن أهم الاكتشافات النظرية لماركس على المستوى الإبستمولوجي والعلمي تتوافق بشكل كبير مع الإيمان. فالإلحاد لا يأتي من العلم الماركسي بل إنه يعتبر اختيارا فلسفيا. إن الفلسفة المادية السابقة عن ماركس هي التي لا توافق الإيمان الديني وليس فلسفة البركسيس التي حدد ماركس بعض محاورها الرئيسية دون تطويرها موضوعاتيا.

وإذا كان كذلك- وهو ما لا يمكن تطويره هنا- فأن تكون مؤمنا لا يعني أنك لا عقلي، وأنك في تناقض مع جوهر فكر ماركس. فالقبول بالثوابت الأساسية المكتشفة من طرف ماركس والمعروضة في "الرأسمال" انطلاقا من الأسس الإبستمولوجية للبركسيس، كما تناولها في مؤلفاته الشهيرة "أطروحة حول فيرباخ" و"الإيديولوجيا الألمانية" يجعل الاختيار ممكنا بين تصور مؤمن أو ملحد للعالم.

قوة اليوتوبيا: إن انهيار جدار برلين يعني موت الماركسية اللينينية أو الستالينية وليس فكر ماركس، الاشتراكية المتحققة وليس الاشتراكية. إن الاشتراكية ستستمر في الوجود مادامت الكائنات الإنسانية التي ترفض الهيمنة موجودة، وسيستمر فكر ماركس في تزويدنا بمقولات التحليل والكشف التي لا غنى عنها إلى غاية انهيار الأسس الرأسمالية، وستستمر اليوتوبيا في إعطاء المعنى للكائنات الإنسانية. إن الإسهامات النظرية لماركس ستصبح وسائل أساسية للمعارك الإنسانية الجديدة ما لم يتم تحويلها من جديد إلى عقيدة، أولئك الذين يريدون تحجيز التاريخ وشرعنة ضغط مهيمنو الخدمات.

ستفتح طرق جديدة لممارسة التحرير إذا ما وجد الوضوح والشجاعة الكافيتان لإعادة نظر جذرية في النماذج السابقة. وإذا لم يتحقق ذلك فإن الإصلاحات المقترحة بالرغم من جرأتها كقبول المؤمنين داخل الأحزاب الملحدة تقليديا، لن تصير إلا مبادرة غير مؤثرة.

(*) مقال في الأصل باللغة الإسبانية. وصدرت ترجمته إلى اللغة الفرنسية من طرف الباحث نيكول بوران بمساعدة جاك تيكسي في مجلة ماركس الحالي (Marx actuel) عدد 16 سنة 1994 بباريس.

(**) أستاذ علم الاجتماع بجامعة محمد الخامس أكدال بالرباط